احياء الصناعات الريفية

وأثره في رفاهية القرية

لحضرة صاحب السعادة محمد حافظ رمضان باشا

كلما تعمق الباحث في الأصول والأسس التي تعود اليها مشكلاتنا الصحية والاجتماعية والتعليمية ألفاها جميعها اقتصادية أو تمت الى الحالة الاقتصادية بأكثر من سبب . فان الانحطاط بين كثير من السكان يعود الى قلة الغذاء الوافي السخي . وكثير من فساد الأخلاق والميل الى الاجرام كذلك يعود الى الفاقة الملحة التي تدفع الى الشر . وعجز الآباء عن تعليم أبنائهم وعجز الحكومة عن ايجاد مدارس راقية عامة لجميع السكان يعودان أيضا الى فقر الناس وقلة موارد الدولة . وهذه الحقائق تزداد وضوحا كلما تعمق الباحث في البحث وتغلغل في الأوساط الفقيرة ، حيث يجد المسكن السيئ الذي تحيط به وتغشاه وخامة عامة في الهواء والماء والطعام واللباس . فالغرف مظلمة والفراش موبوء بالحشرات ملوث بقذارة السنين بالى الأطراف مرقع الوسط . والذباب يعكف على بقايا الطعام وهو طعام خام لا تكاد تهضمه المعدة الانسانية . والملابس رثة قذرة كأنها لم تعرف الصابون .

هذه هي بيئة الفقر ، بيئة الوفيات التي لا تنقطع في الأطفال ، بيئة الحميات المتوالية ، بيئة التعطل والمشاجرات بين الأزواج ثم بعد ذلك الاتجاه نحو الإجرام والتشرد .

ولهذا السبب ينتهي الباحث الى أن مشكلتنا الأساسية هي المشكلة الاقتصادية وأن الاصلاح الصحي أو الاجتماعي يقتضي قبل كل شيء الاصلاح الاقتصادي بزيادة الكسب للعامل - عامل المدينة وعامل الريف - حتى اذا زاد كسبه تحسن طعامه ولباسه ومسكنه واستطاع أن يشتري وسائل النظافة والدفء والهواء النقي ، بل استطاع أن يقي طفله من التشرد وعندئذ تزول المشاجرات الزوجية — مشاجرات الفقر — ويشمل البيت جو من السكون ويحل الوفاق محل الخلاف والحب محل التنافر والتشاحن .

ولذلك يحس المصلح الاجتماعي في مصر أن الواجب الأول لمكافحة الجريمة والجهل والمرض والشقاء العائلي وكثرة الطلاق انما هو العمل لزيادة الثروة العامة والترفيه عن الطبقات الفقيرة بزيادة مكاسبها ، وأنه يجب أن تتوافر جميع التسهيلات لايجاد نهضة صناعية حتى تنتشر المصانع العصرية التي تستوعب أكبر عدد من العمال فتخفف بذلك من ازدحام الريف وتغنى البلاد بمصنوعات وطنية يكون فيها المنتج والمستهلك مصريين . ولكن أهم من ذلك أن تقوم الى جنب المصانع العصرية الكبيرة مصانع صغيرة لإنعاش أو إحياء الصناعات القروية .

وهنا نحتاج إلى بعض الإيضاح. فإن القرية المصرية كانت إلى ما قبل سنة ١٨٧٠ أو ١٨٨٠ تعيش بما يمكن أن نسميه الاستكفاء الاقتصادى . فكانت تصنع لسكانها كل ما يحتاجون إليه تقريبا من لباس أو فراش أو غيرهما مما يحتاج إليه البيت الريفى الفقير أو المتوسط . ولم يكن الفلاح يحتاج إلى الأقمشة الأجنبية ، بل حتى الأطباق والملاعق كانت تصنع فى القرى من الخشب . ولكن المصنوعات الأوربية الرخيصة التى تصنعها الآلات الكبيرة غمرت أسواقنا ولم نقم فى وجهها سدا من المكوس الجمركية . فماتت صناعتنا القروية جميعها ولم يعد الفلاح يغزل وينسج . ثم جاءت وسائل النقل الحديث الذى يتغذى بالبترول فأخلت بالاقتصاديات الزراعية وجعلت الفلاح المصرى حوالى سنة ١٩٣٠ لا يحصل (من حيث أثمان حاجاته) على نصف ما كان يحصل عليه سنة ١٨٨٠ . لأن القرية كانت قبل ستين أو سبعين سنة تزرع القمح والذرة والبرسيم فى ضعفى أو ثلاثة أضعاف المساحة التى تزرع بالقطن . فكان الغذاء كثيرا للفلاحين والعلف متوافرا للماشية واللبن كذلك متوافرا بكثرة الماشية . ثم كانت الصناعات القروية مزدهرة — وأهمها الغزل والنسج — فكانت الرفاهية عامة . وهناك من يزعم أن الفلاح كان مرهقا بالضرائب ويضربون مثلا على ذلك دمغ الدفئيات والزعابيط . وقد يكون فى هذا الزعم شىء من الحق . ولكن كان هناك على الأقل دفئيات وزعابيط يصنعها الفلاح وتفرض عليها الضرائب ... وهو لو كان يجد خسارا فى صنعها لثقل الضرائب لما غزل ولما نسج ! ثم كان النقل فى القرية والمدينة بالحصان أو الجمل أو الحمار . وكل هذه الماشية كانت تحتاج إلى خدمة الفلاح التى يحصل منها على أجور .

ولكن فتح أبواب الجمارك وإجازة دخول المصنوعات الأوربية بلا قيد ولا شرط ، قتل الصناعات الريفية قتلا تاما ، فعمت الفاقة الريف وأصبح ثلثا الأرض يزرع قطنا وقلت الماشية ، لأن الأتومبيل جعلها غير ضرورية أو كثيرة التكاليف . ويجب ألا ننسى هنا أن الرغبة فى زراعة القطن والتوسع الأعمى فيه هى السبب لمعظم كوارثنا :

هى السبب لاختلال الدورة الزراعية وقلة الطعام للفلاح والعلف للماشية .

وهى السبب للخطة الجنونية التى اتبعناها فى رى الأرض دون تفكير فى صحة الفلاح ولا نقول صحة الأرض وصحة الماشية وصحة النبات .

وهى السبب للاتجاه نحو التوسع الزراعى مع إغفال التعمق الزراعى فلم تعد لنا صناعات زراعيـة .

وكأن الاقتصاد الزراعى قد اقتصر على أن يجعل مصر عزبة كبيرة لزراعة القطن لا أكثر أما صحة الفلاح أو تشبع الأرض بالماء أو وفرة الآفات التى تنشأ من ذلك ، فلم يكن لها جميعها أية قيمة عند المتولين أمر الرى أو الزراعة فى مدى الستين من السنين الماضية .

ولغريب أننا مع هذا الافقار للريف قد وجدنا صعوبات أخرى في إيجاد حركة صناعية في المدن . فلم نستطع انشاء المصانع الكبيرة التي تدور بالآلات العصرية . ولو سمح لنا بإيجاد هذه المصانع لخف الازدحام عن الريف ولو جدت صناعات جديدة في المدن بدلا من الصناعات القديمة التي وئدت في الريف .

ولكن بعد سنة ١٩٣٠ رأينا المكوس الجمركية تفتح لحماية الصناعات الناشئة . ووجدنا صناعات جديدة تنهض على أصول عصرية بآلات عصرية . ونحن نحس أثر هذه المصانع في هذه الحرب حيث نجد الكوب الزجاجي الذي نشرب به أو الأقمشة التي نحتاج اليها . ولم نكن نجد مثل هذا ولا قريبا منه في الحرب الماضية . وأكثر من ذلك أصبحنا نسمع حركة النول في يد الفلاح والعامل في القرية والمدينة بعد نحو ستين سنة من ذلك الموت .

وكل هذا حسن، ولكن أحسن منه أن نتوسع في هذه الصناعات من جهة وأن نحافظ عليها حتى لا تموت بعد الحرب بأي اتفاق تجاري جديد يفتح علينا أبواب الجمرك لمصنوعات رخيصة تتدفق من الأقطار الاجنبية وتخطف اللقمة من يد العامل المصري .

وميدان التوسع في هذه الصناعات كبير جدا . فان النول يجب أن يعود إلى كل قرية مصرية لنسج السجاجيد والأكلمة والأقمشة والبشاكير والفوط والمفارش . ويجب أن تتوفر المصانع الآلية الكبيرة على إيجاد الغزل الذي تحتاجه هذه الأنوال . والنسج بالنول من الصناعات السهلة التي يمكن أن يحذقها الفلاح في وقت قصير . ثم هو يجد في بعض فصول السنة أيام كلها فراغ أو هي قليلة الأعمال الزراعية فيستطيع أن ينسج لعائلته ان لم يكن لقريته فيزيد كسبه بعض الشيء ويرفه عن أولاده ويشتري القليل مما يساعده هو وأولاده على النظافة أو الغذاء .

والصناعات الريفية كثيرة ولكن يجب أن يكون للنول المقام الأول فيها . لأن أعظم ما يستهلك الدخل الضئيل الذي يحصل عليه الفلاح هو ملابسه وملابس زوجته وأولاده . وليس هناك ما يمنع بتاتا أن يقوم هو وزوجته وأولاده بنسج جميع ما يحتاجون اليه .

ثم تأتي بعد ذلك صناعات أخرى كثيرة أهمها بالطبع ما يتعلق بمشتقات اللبن من زبدة وجبن، ثم يلي ذلك تربية الدجاج وغيرها . وقد رأينا الارانب تربى في بعض العزب الانجليزية لكي تسلخ فراؤها وتستعمل للمعاطف أكثر مما تسلخ لحومها . وقليل من التعليم والتدريب يمكن الفلاح من الانتفاع بفراء الأرانب . ثم هناك آلات صغيرة يمكن أن تصنع بها العلب من الصفيح لتخزين الأطعمة . وفي مصر كنا نشتري أيام السلم علبة السردين بقرش واحد . وهذا يدل على أن العلبة قليلة التكاليف . فلو أنشئت جمعية تعاونية لصنع العلب وتخزين بعض الأطعمة التي يصنعها الريفيون كالمربيات والزبدة وبعض الخضر لأغنينا ريفنا . ولعند البقالين في القاهرة تباع اللوبياء الخضراء في علبة مصدرة الينا من

الولايات المتحدة الأمريكية ، ويشتريها المتأنقون الذين يمكنهم أيضا أن يشتروا الفواكه بل الحساء في علب مجهزة للمائدة . وعندنا في الريف من البلح والفواكه الأخرى بل الخضر ما يمكن حفظه في العلب وبيعه في غير أوانه لسكان المدن .

وأخيرا هناك النجار الريفي الذي نسي حرفته للفاقة السوداء التي تعم قرانا وتجعل الفلاح يقنع بالمعيشة البدائية ولا يفكر في حيازة كرسي أو سرير أو رف أو مائدة . فإن هذا النجار يجب أن يعود إلى الحياة وأن يتعلم كيف يستخدم خشب الجميز والسنط والكافور في صنع الأثاث الريفي إلى جانب صناعته الأصلية للآلات الزراعية .

إننا نحس وطنية اقتصادية جديدة شعارها « المصري للمصري » فيجب ألا نتركها تذهب كلاما في الهواء . بل يجب أن تتعاون حكومة وأمة على إيجاد المصانع العصرية الآلية الكبيرة في المدن والمصانع الصغيرة في الريف وجمعيات التعاون لترقية جميع الصناعات الزراعية . وبذلك تزول الفاقة السوداء التي تخيم على ريفنا وتعمم المرض والجريمة والفساد في القرية المصرية .

محمد حفظ رمضان

من حكم ابن المقفع

لا يقيك من شر الجاهل قرابة ولا جوار ولا ألفة ، فإن أخوف ما يكون الإنسان من حريق النار أقربه منها . وكذلك الجاهل : إن جاورك أتعبك ، وإن ناسبك جنى عليك ، وإن صاحبك حملك ما لا تطيق ، وإن عاشرك آذاك وأخافك . مع أنه عند الجوع سبع ضار وعند الشبع أمير فظ . فأنت بهربك منه أحق بالهرب من حريق النار .